"الحِجاجُ البلاغيُّ بالفعل: "سَأَلَ" في القرآنِ الكريمِ-دِراسَةٌ في تحليلِ الخِطابِ"

أ.د. سليمان علي محمد عبد الحق.
أستاذ النقد الأدبي والبلاغة بقسم اللغة العربية وآدابها.
كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الجامعة القاسمية.
الإمارات العربية المتحدة-الشارقة.
sabdelhaq@alqasimia.ac.ae
dr.sli_ali@yahoo.com

مُلَخَّصُ البَحْثِ باللُّغةِ العَرَبيَّة

يركّز موضوع هذا البحث على دراسة أسلوب الحجاج بالفعل (سَأَلَ) في القرآن الكريم؛ بوصفه وسيلة أسلوبية بيانية تهدف إلى إقناع المتلقِّي بعقيدة التوحيد، والتسليم بمضمون الخطاب بعد الاقتناع بالأدلّة والبراهين الدّامغة.

وتتمثل أهمية البحث في محاولته الكشف عن أثر الحجاج البلاغي بالفعل (سأَلَ) في القرآن الكريم في تحريك العقول، وإثارة المشاعر نحو الحُجج المعروضة التي تقود المخاطب نحو الخضوع والتسليم والإيمان بالمجاب عنه.

وتستعين هذه الدراسة من أجل الوصول إلى النتائج المرجوة بالمنهج الوصفي التحليلي.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج، **منها**:

أن الحجاج البلاغي باستخدام الفعل (سَأَلَ) ورد بصيغ ثلاث في القرآن الكريم، هي: الفعل المضارع (يسألون-يسألك-تسألون)، وهي الأكثر شيوعًا، والفعل الماضي المبني للمجهول (سُئِلَ)، ثم اسم الفاعل (سائل).

ومنها كذلك: أن أساليب الحجاج البلاغي بالفعل (سَأَلَ) تنوَّعت في القرآن الكريم؛ مثل: التلقين، والتقرير، والأسلوب الحكيم، والانتقال، والقول بالموجَب.

ومنها أيضًا: أن الحجاج البلاغي بالفعل (سَأَلَ) في القرآن الكريم قد تناول مضامين ومسائل عديدة؛ مثل: التوحيد، والخلق، والبعث والنشور، والحساب، والفرائض والعبادات والعادات والظواهر الكونية، والغيبيات وغيرها.

الكلمات المفتاحية:

الحجاج البلاغي، الخطاب القرآني، الروابط الحجاجية، العوامل الحجاجية، السلالم الحجاجية.

Abstract

Prof. Soliman Abdelhaq.
Professor of Literary Criticism and Rhetoric.
Department of Arabic Language.
Faculty of Arts and Humanities.
Al-Qasimia University, UAE, Sharjah.
Email:
sabdelhaq@alqasimia.ac.ae
dr.sli_ali@yahoo.com

"Rhetorical Argument in action: "Sāla" in the Holy Qur'an - a study in discourse analysis"

The subject of this research focuses on studying the style of the rhetorical argument with the verb (Sāla) in the Holy Qur'an. As a stylistic and declarative means that aims to convince the recipient of the doctrine of monotheism, and to accept the content of the speech after being convinced by compelling evidence and proof.

The importance of the research is in its attempt to reveal the rhetorical effect of the rhetorical argument with the verb (Sāla) in the Holy Qur'an in moving minds and arousing feelings towards the presented arguments that lead the addressee towards conviction, submission, and faith in the person being answered.

In order to reach the desired results, this study uses the descriptive and analytical method.

This study reached a number of results, including:

The rhetorical argument using of the verb (Sāla) was mentioned in three forms in the Holy Qur'an: the present tense verb (they ask - he asks you - you ask), which is the most common, the past tense verb in the passive voice (Sāla), and then the active participle (Sāla).

Among them also: The rhetorical argument methods with the verb (Sāla) varied in the Holy Qur'an. Such as: indoctrination, report, wise method, transmission, and saying what is necessary.

Among them also: The rhetorical argument verb (Sāla) in the Holy Qur'an addressed many implications and issues. Such as: monotheism, creation, resurrection, reckoning, duties, acts of worship, customs, cosmic phenomena, the unseen, and others.

Key Words:

Rhetorical Argument, Quranic discourse, Argumentative connectives, Argumentative factors, Argumentative stairs.

التمهيد

اعتمد الخطاب القرآني على ألوانٍ متعددة من الأساليب البيانية والبديعية والخبرية والإنشائية التي تهدف إلى الوصول إلى أعلى مستويات الإفهام والتبيين لدى المتلقِّين على تنوع ثقافاتهم وتباين اتجاهاتهم الفكرية ونوازعهم النفسية. ومن بين تلك الأساليب التي وردت كثيرًا في القرآن الكريم أسلوب الحجاج البلاغي الذي واجه المنكرين ودحض حُجج الخصوم الذين تسلّحوا بأدوات المذهب الكلامي من أجل التشكيك في كتاب الله الحكيم.

ومن هذا المنطلق يناقش هذا البحث آليات الحجاج البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" في القرآن الكريم، وكيف استطاع الخطاب القرآني مقارعة الخصوم وتفنيد آرائهم، وإزالة شكوكهم حتى وصل بهم إلى التسليم والإذعان التّام بكثير من المسائل والقضايا الفقهية والكونية والمجتمعية والغيبية التي استشكل فهمها على بعض المتلقين، فضلًا عن استهدافه فئة المتعلمين السائلين عن أمور دنيوية عديدة، مثل: الخمر والميسر، والمحيض، والأهلّة، والشهر الحرام. وكذلك السائلين عن الرّوح، والإنفاق، والجنة والنار، والبعث والنشور وغيرها.

وتقوم هذه الدراسة على تحليل آليات الحجاج البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" الواردة في آيات القرآن الكريم، ورصد طبيعة المعالجات القرآنية لمختلف المسائل التي ورد جلُّها لغاية التعليم والنُّصْح والتّوجيه وليس لغايات رد حجج الخصوم وهزيمتهم.

ويعتمد البحث على تطبيق معطيات المنهم الوصفيّ الذي يتكئ على التحليل آلية للوقوف على آليات ثلاث للحجاج البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" في القرآن الكريم، هي:

أولًا: الروابط الحجاجية:

تلك التي يستعملها المتكلِّم ليربط بين الحجج المختلفة ويقوي العلاقة بينها بحيث تقود الأولى إلى الثانية وتؤدي الثانية إلى الثالثة حتى يصل بالخطاب إلى منتهى الإقناع، مثل: الظروف، وأدوات العطف، والتوكيد، والنفي، والاستثناء، والتعليل، والشرط، والإضراب.

ثانيًا: العوامل الحجاجية:

وهي الأدوات التي تحقق للخطاب تماسكًا لغويًا يقوم على بناء مُحكَم يتصل أوله بآخره عبر مجموعة من الضمائم الإفصاحية، وآليات النظم النابعة من استعمال أساليب بيانية أو بديعية بعينها، كما أنها تمنح الخطاب طاقاتٍ لامتناهية من المعاني والظلال والإيحاءات التي تؤدي إلى تأثر المتلقّي بمضمونه، وقد تكون ذات طبيعة لغوية أو غير لغوية: فمن أمثلة العوامل الحجاجية اللغوية أساليب الإنشاء بأنواعه المختلفة، والإسناد، والقَصْر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والحذف والذِّكْر وغيرها من أساليب علم المعاني، ومنها كذلك أساليب البديع المعنويّ أو اللفظيّ، مثل: الطباق، والمقابلة، والتصدير، والجناس، والتكرار. فضلًا عن استعمال بعض ألوان الصور البيانية، مثل: التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية. وكلها أشبه بالمورفيمات الحرة أو المقيّدة التي توسّع دائرة الدلالة ليتحول الخطاب الملفوظ من الإبلاغية إلى الحجاجية.

ومن العوامل الحجاجية غير اللغوية: القياس، والاستدلال، والبرهان، والتسليم، والأسلوب الحكيم، والانتقال من مستدلّ إلى آخر لإقناع الخصم، والحصر، وغيرها.

ثالثًا: السلالم الحجاجية:

يقوم الخطاب الحجاجي الفعّال على استراتيجية تداولية تعتمد على عدة عوامل، مثل: التتابع أو التصعيد من الحُجّة الأضعف إلى الحُجّة الأقوى حتى الوصول إلى درجة الإقناع بإخضاع الخصم وتسليمه، ونوعية المخاطَب، وسياق الحال أو الموقف الذي يدور فيه الخطاب.

وتهدف السلالم الحجاجية بشكل عام إلى إزالة أي غموض أو شكٍّ لدى المتلقي تجاه المسألة المعروضة من المتكلِّم؛ وبالتالي وصوله إلى أعلى درجات السُّلَم الإفهامي.

المبحثُ الأوّلُ
الروابط الحجاجية للفعل "سَأَلَ" في القرآن الكريم

يهدف الرابط الحجاجي إلى الربط بين حُجّتين أو ملفوظين أو عبارتين أو أكثر في الخطاب، في إطار استدراجية حجاجية واحدة"[1]. وتتمثّل أهمية الروابط الحجاجية–على تنوعها–في تحقيق الوصول إلى البرهنة على الحجج أو إثباتها لدى المخاطبين الذين يمكن تصنيفهم إلى ثلاثة أصناف، هي:

أ–مخاطبٌ خالي الذّهن ليس لديه أيّ نوع من الشك أو الإنكار تجاه موضوع الحجاج أو إشكاليته، وهذا النوع من المخاطبين هو الأشهر والأيسر على المتكلِّم؛ لأنه لا يتطلّب جهدًا أو معاناة منه لإثبات حجّته أو تأكيد وجهة نظره عبر روابط حجاجية كثيرة أو متنوّعة؛ ولهذا فيمكن أن تساق إليه الحجّة دون الحاجة إلى رابط حجاجي، كما في قوله تعالى:

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾-(البقرة/189). فالأهلّة ظاهرة كونيّة شَكُلَ أمرها وحقيقتها على الناس، فسألوا رسول الله–صلّى الله وسلّم–عنها، فجاء الجواب بأنّها مواقيت زمنية تتحدد بها أشهر الصوم والحجّ والعِدّة وغيرها من أمور الدين والدنيا.

–وكذلك مثل قوله تعالى:

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾-(الإسراء/85). فالمخاطبون هنا جاهلون بجوهر المسؤول عنه وليست غايتهم الجدال حول الروح؛ لذا جاء تركيب الخطاب بسيطًا لا يحتاج إلى رابط حجاجي يقوّي الحُجّة ويصل بها إلى مستوى البرهان أو درجته.

ب–مخاطبٌ شاكٌ أو مرتابٌ في أمر ما، ومشوّشُ الذّهن: وهذا النوع من المخاطبين يحتاج إلى إجابة مفصّلة لا مجملة؛ بهدف تبديد شكّه أو إقناعه صواب مسألة ما أو خطئها للوصول به إلى الاقتناع والتسليم. ويحتاج هذا الصنف من المخاطبين إلى روابط حجاجية متنوّعة قد يهدف بعضها إلى التوكيد وبعضها الآخر إلى التعليل أو التفسير أو النفي. وذلك مثل قوله تعالى:

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾-(البقرة/222).

فالسؤال هنا عن مسألة مهمّة من مسائل العلاقة الأسرية بين الرجل والمرأة، إذ المسؤول عنه جماع النساء وقت المحيض، وليس عن المحيض، فجاءت الإجابة بسيطة هي: (هو أذًى)؛ وهنا قدّم الخطاب القرآني علّة الحكم عليه أو قدّم البرهان على الحُجّة،

[1] -العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج، ط1: منتديات سور الأزبكية، مصر، 1426هـ/2006م، ص29.

ثم تدرج الخطاب الحجاجي إلى وجوب اعتزال النساء في المحيض لأنّه أذًى، فالفاء العاطفة في قوله تعالى: (فاعتزلوا) لا تفيد التعقيب والترتيب فحسب، بل التعليل أيضًا.

ثم جاء التصعيد والترقّي في الخطاب الحجاجي من خلال اعتماده على جملة من الروابط والعوامل الحجاجية من أجل إزالة أي شكّ أو ظن لدى المخاطب تجاه تحريم جماع المرأة حال الحيض، فقال تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ) فاعتمد على النهي الصريح ثم استخدم رابطًا حجاجيًا قويًّا هو (حتى) التي تفيد الغاية، وتوضح أنَّ زوال علة النهي يكون بتمام الطهارة التي تستلزم الطهارة التّامّة.

ثم اتسعت دائرة الخطاب الحجاجي ليسوق جملة من آداب الجماع عبر مجموعة من العوامل والروابط الحجاجية، على النحو الآتي:

-(هُوَ أَذًى)/علّة اعتزال جماع النساء في المحيض.

-(فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)/ أسلوب أمر (عامل حجاجي) يبين حكم الجماع وقت المحيض.

-(وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ)/ أسلوب نهي (عامل حجاجي) ينهى عن الجماع وقت المحيض حتى انقطاع الدمّ وتمام الطهارة.

-(فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ)/ أسلوب شرط (عامل حجاجي) يربط بين الجماع وتمام الطهارة من الحيض.

-(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)/ أسلوب توكيد (رابط حجاجي) يضع خلاصة عامة للمسألة.

ونلحظ هنا أنّ الخطاب الحجاجي القرآني قد وصل إلى أقصى الغاية في البرهان على هذه المسألة من خلال تعليل أسبابها وتفسيرها بوضعها بين علّتين في أول الخطاب: (هو أذًى)، وآخره: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ).

كما نلحظ سموّ الخطاب القرآني في استخدامه للمجاز المرسل والكناية في استعمال (المحيض) بدلًا من الجماع، واستعمال (اعتزلوا النساء) بدلًا من: (اعتزلوا الجماع).

ج-مخاطبٌ مُنكِرٌ أو رافضٌ لمسألة ما، ولديه اتجاهٌ قبْليٌّ أو أيديولوجيٌّ تجاهها:

وهذا النوع هو أشدُّ أنواع المتلقين وأخطرُهم على المتكلِّم أو المجادل؛ بوصفه ذا اتجاه أو عقيدة فكرية راسخة تكونت معطياتها لديه بمرور الزمن، وأصبحت متراكمة أو متوارثة، وهذا يستلزم جهدًا حجاجيًا كبيرًا من المخاطِب كي يستطيع حلحلة تلك الثوابت الخاطئة التي جعلت ذلك المخاطَب منكرًا إلى هذه الدرجة، ومرتابًا في جدوى حُجج المتكلّم.

وفي تصوري أنَّ هذه الفئة من المتلقين تستوجب من المتكلِّم استخدام السلالم الحجاجية التي يتدرج فيها المتكلِّم في سوق الحُجج من الأضعف إلى الأقوى ويرقي بها إلى أن يصل إلى أعلى درجة من السلالم الحجاجية التي تمثِّل نتائج المقدِّمة أو المقدِّمات الكبرى والصغرى، كما في المثال الآتي:

-محمدٌ يذاكر دروسه بجِدّ/ مقدّمة كبرى

-أجاب محمدٌ عن أسئلة الاختبار بدقّة وإتقان/ كمقدّمة صُغرى

-تحصّل محمدٌ على تقدير "ممتاز"/ نتيجة

فالمتكلِّم يتوجّه إلى هذا النوع من المتلقين بحُجج متنوّعة تتدرج من العام إلى الخاص بقصد إقناعه بفعل معيّن، أو التأثير فيه اعتمادًا على سُلَّم حجاجي يكون" بمنزلة دعامة استدلالية لغرضه الذي من أجله كانت العملية التخاطبية. والحُجج التي يوردها لن تكون على درجة واحدة، بل تختلف وتتفاوت فيما بينها وفق القوّة والضّعف"[1].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

-﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾-(البقرة/219)،

جاء الفعل (سَأَلَ) في الآية الكريمة مرتين، وفي كلتيهما حجاجٌ بلاغيٌّ حاسم للخصوم، على النحو التالي:

-جاء السؤال عن (الخمر والميسر)؛ أي عن حكمهما من حيث الحِلّ والتحريم. ومن المعروف أنَّ هاتين الآفتين كانتا من أبرز عادات العرب قبل الإسلام وبعده؛ لذا جاء الجواب هادئًا متدرّجًا في قوله تعالى:"**فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**" على أسلوب الطيّ والنّشر[2]؛ فقد جاء السؤال مطويًّا عن الخمر ثم الميسر على الترتيب أو التعاقب، فجاءت الإجابة منشورةً على الترتيب أيضًا: فيهما إثمٌ (للخمر)، ومنافع للناس (للميسر أو القمار).

[1] -الرقبي، رضوان، الاستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله، مجلّة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع20، م40، أكتوبر-ديسمبر2011، ص93.

[2] - الطيّ، نقيض النشر، طويته طيا وطية. الطيّ والنشر هو اللفّ والنشر، وقد سمّاه بذلك الحموي، ولكنّ معظم البلاغيين يسمونه: «اللفّ والنشر». وكان المبرد من أوائل الذين التفتوا الى هذا النوع وقال: «والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأنّ السامع يردّ إلى كل خبره»، كقوله تعالى: **"ومِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ"**... والزمخشري يسمّيه لفًا، وهو المصطلح الذي تعارف عليه البلاغيون، لكنهم أضافوا اليه «النشر». قال الرازي: «اللف و النشر هو أن تلف شيئين ثم ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأنّ السامع يردّ الى كل واحد منهما ماله»، و أدخله السّكّاكي في المحسّنات المعنوية و قال: «اللف و النشر، و هي أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاما مشتملا على متعلق بواحد و بآخر من غير تعيين ثقة بأنّ السامع يردّ كلا منهما الى ما هو له». انظر: مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ط1: مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ، العراق، 1403هـ/1983م، 525/1، 526.

وتُمثِّل هذه الآية إحدى درجات تحريم الخمر بين الآيتين: الثالثة والأربعين من سورة النساء[1]، والتسعين من سورة المائدة[2]؛ حيث إنَّ تحريم الخمر جاء متدرِّجًا على ثلاث مراحل زمنية، من بينها الآية محلّ الشاهد التي نلحظ فيها أن السُّلَّم الحجاجي جاء متدرِّجًا على النحو الآتي:

- "**فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**"/مقدّمة صُغرى تمثّل حُجّة أولى فيها توضيح لإثم الخمر، ومنافع القمار؛ أما إثمهما فهو في الدِّين؛ لأنَّ الخمر تذهب العقل، وتهلك الروح، وتقود إلى ارتكاب الجرائم دون وعي، وأما المنافع فلأنَّ القمار قد يجلب المال الكثير دون كدٍّ. ومجيء الحجاج على هذه الشاكلة يسمَّى بـ" القول بالموجب"؛ وهو "ردُّ كلام الخَصم من فحوى لفظه؛ أي محاولة إقناع المتكلِّم والردّ عليه من خلال عكس مقولته، وهو أسلوب معروف لدى أهل الكلام وصناعة الجدال"[3]. وقد كشف هذا الخطاب الحجاجي مراعاة القرآن الكريم لطبيعة هذه الحقبة التي صاحبت ظهور الإسلام بين أناسٍ يدمنون شرب الخمر ولعب الميسر، فكان لا بُدَّ من هذا التوازن الحجاجي بين السلبيات والإيجابيات.

ثم تدرَّج الخطاب ليرجِّحَ كفّة السلبيات التي تنتج عن هاتين الآفتين-الخمر والميسر-لإفسادهما الدِّينَ والعقلَ والمالَ، فالأضرار أكبر بكثير من المنافع، كما يتضح من قوله تعالى:

- "**وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**"/ مقدّمة صُغرى تمثّل حُجّة ثانية أقوى من سابقتها؛ الهدف منها ترجيح كفّة الضرر أو الإثم ليكون ذلك مدعاة لاجتناب شرب الخمر ولعب الميسر.

ونلحظ أنَّ واو العطف قامت بدور مهم في تقوية الحُجج والربط بينها من أجل الوصول إلى إقناع أولئك السائلين عن الخمر والميسر، فقد عطفت الواو منافع القمار على الإثم الكبير للخمر: " فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ"، ثم عطفت جملة: " إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا" على سابقتها؛ لتصل إلى ترجيح كفة الإثم والضرر على المنفعة؛ لأنَّ المنطق والشرع يؤيد القاعدة التي تقول: "إنَّ درء المفاسد أَوْلى من جلب المصالح"[4].

ثانيًا: جاء السؤال عن (الإنفاق)؛ أي عن مقدار ما يتصدّق به الإنسان، وذلك في قوله تعالى: " **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**"، وهنا جاب الخطاب مباشرًا؛ ليكشف عن نسبية ما يمكن أن يتصدّق به الإنسان من ماله أو طعامه أو شرابه، وهو العفوُ أو الفضْل الذي يُعدُّ إنفاقه خيرًا، وإمساكُه شرًّا، كما جاء فيما رواه النبيّ-صلّى الله عليه وسلّم-عن ربّ العزّة-عزّ وجلّ-: "يا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، ولا تُلامُ علَى كَفافٍ، وابْدَأْ بمَن تَعُولُ، والْيَدُ العُلْيا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى"-(صحيح مسلم/1036).

---

[1] -قوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا**"-(النساء/43).

[2] -قوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**"-(المائدة/90).

[3] -بطاهر، بن عيسى: البيان القرآني، خصائصه وأساليبه، ط1: جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2018م، ص57. وينظر أيضًا: بن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، ط1: الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 201/13 وما بعدها.

[4] -الغزّي، محمد صدقي بن أحمد: الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، ط4: مؤسسة الرسالة العالمية، بيروت، لبنان، 1416ه/1996م.، ص265.

فالعفو هنا، سواء على النّصب بفعل محذوف أو الرفع بالخبرية لمبتدأ محذوف، يعني ما يفضل أو يزيد عن حاجة الإنسان وأهله، والمتيسّر من أموالهم أو طعامهم بحيث لا يؤدي الإنفاق بهم إلى الكفاف أو الفقر. فكلُّ ما عفا من مال أو رزق يجوز أن يُتصدق به.

المبحثُ الثّاني
العوامل الحجاجية للفعل "سَأَلَ" في القرآن الكريم

تختلف العوامل الحجاجية عن الروابط الحجاجية في كونها أدوات أو وسائل لغوية تهدف إلى إزالة أي غموض أو شكٍّ لدى المخاطب وتقوده إلى نتيجة واحدة يريد المتكلِّم أن يقنعه بها، معتمدًا على أساليب متنوِّعة تقيّد المطلق أو تفصّل المجمل أو تخصص العام. كما أنَّ العوامل الحجاجية لا تعمد إلى إزالة التعارض أو المقارنة بين حُجج متعارضة بين المتكلم والمخاطب، ولا تتكئ على السلالم الحجاجية المتدرجة شأن الروابط الحجاجية بل تسعى إلى توظيف إمكانات اللغة وعلوم البلاغة (المعاني، والبيان، والبديع) للتأثير في المخاطب وحمله على الاقتناع التّام.

وبناءً على ذلك، فإنَّ " العامل هو الذي يقوم بالربط بين وحدتين دلاليتين داخل الفعل اللغوي نفسه، فهو على هذا موصِّل قضويّ يحمل المكونات داخل الفعل اللغوي، فيبقى هذا الفعل ملتحمًا. أمّا الرابط فهو الذي يربط بين فعلين لغويين اثنين، فهو موصل تداولي يكفل هذه المكونات ليجعل منها أفعالًا لغوية"[1]. ومن هنا فإنَّ أغلب العوامل الحجاجية تهدف إلى توجيه المتلقِّي أو المخاطب نحو نتيجة واحدة؛ ولذلك فإنَّ كلَّ خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب هو بلاغة في نظر أوليفي روبول[2].

مثل قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾-(البقرة/220).

حيث اعتمد الخطاب بالفعل (سَأَلَ) على عدة عوامل حجاجية على النحو التالي:

[1] -الراضي، رشيد: الحجاجيات اللسانية عند ديكرو وأنسكومبر، مجلة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، سبتمبر، 2005م، ص234.
[2] -ينظر: العمري، محمد: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ط1: أفريقيا الشرق، المغرب، 2005م، ص22.

أ-بدأ بالنّكرة وفصل بينها وبين الخبر بالجار والمجرور (لهم) في قوله تعالى: " **إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ**"؛ ومن المعروف أنَّ تقديم الجار والمجرور هنا يفيد التخصيص ويؤكّد الصِّلة بين المصدر (إصلاح) وأموال اليتامى بدعوته إلى صيانتها والحفاظ عليها وتنميتها بالتجارة أو خلافه.

ب-استخدم الخطاب أسلوب الشرط الجازم بالحرف (إنْ) في قوله تعالى: "**إِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**"؛ ليخفف المؤونة والحرج عمَّن يكفلون اليتامى القُصَّر بحفظ أموالهم والتّجارة فيها؛ وذلك بإجازة مخالطتهم في بعضها من غير ضرر ولا ضرار؛ أي أنَّ خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى؛ لأنهم إخوانكم أو أقرباؤكم من الدرجة الأولى، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه. ومن شأن هذا الخطاب رفع الضرورة عن رعاة أموال اليتامى بعزلها عن أموالهم، وإباحة المخالطة بشرط عدم الإضرار.

ج-استعمل الخطاب الجملة الاسمية الاعتراضية أو المستأنفة؛ كي يقنّنَ معيار المخالطة أو عدمها؛ وذلك بقياس كلّ ذلك على النّيّة؛ أي أنَّ مخالطة اليتامى في أموالهم أو تجارتهم أو طعامهم جائزة بشرط حسن النّية التي يعلمها الله، ويعلم المفسد من المصلح، حيث قال تعالى: " **وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**".

-استعمل الخطاب أحد ألوان البديع المعنوي عندما طابق بين (المفسد، والمصلح) ليؤكّدَ أنَّ هناك شَعَرَةً ضئيلة بين الحلال والحرام في تلك المسألة-أعني مخالطة اليتامى في أموالهم ومطعمهم ومشربهم-تتحدّد ترتبط بإخلاص النيّة، وهي الغاية الإقناعية للخطاب الحجاجي في الآية.

-استعمل الخطاب أسلوب الشرط غير الجازم بالحرف (لو) في قوله تعالى: " وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ"؛ ليبين مقدار التيسير على الأوصياء بترخيص مخالطتهم أموال اليتامى في أثناء التّجارة أو المأكل أو المشرب أو العقود أو المعاملات الأخرى التي تهدف إلى تنميتها وزيادتها. وقد اقتضت حكمة الله وعنايته إباحة ذلك لأنَّ ضدَّه-تحريم المخالطة-فيه مشقّة شديدة وعناء على المسلمين.

وفي قوله تعالى:

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾-(الأعراف/187).

فقد اعتمد الخطاب بالفعل (سَأَلَ) على أسلوب القَصْر بأكثر من صيغة على النحو التالي:

أ-استعمل أسلوب القَصْرِ بإنَّما في قوله تعالى: " **إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي**" فالعِلْمُ بالساعة مقصور على الله تعالى وحده لا غيره؛ وبالتّالي فإنَّ هذه المسألة الجدلية محسومة من البداية، ثم كرر استعماله مرة أخرى في قوله تعالى: " إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ" ليؤكّد

قصر علم الساعة على الله سبحانه وتعالى وحده، ثم لينفيَ علمها عن أيّ بشر ولو كان النبيَّ نفسه–صلّى الله عليه وسلّم. فتكرار العامل الحجاجي بالقَصْر من شأنه أن يؤدي إلى اقتناع السائلين وتسليمهم.

–استعمل القَصْر بالنفي والاستثناء في قوله تعالى:" **لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ**"، وقوله تعالى: " **لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً**"؛ وذلك لصرف ذهن السائلين الذين لا يؤمنون بالساعة ويستبعدون قيامها إلى وجهة واحدة حاسمة لا تحتمل التأويل هي أنَّ علم الساعة عند الله وحده سبحانه، وأنَّها ستأتيهم فجأة مثل لمح البصر أو هو أقرب، كما أخبر رسولنا–صلّى الله عليه وسلم– عنها في الحديث الذي رواه أبو اليمان عن أبي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–أنّه قَالَ: "...وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا"–(صحيح البخاري/6739).

–استعمل الخطاب القرآني أسلوب التقديم والتأخير بتقديم اسم الاستفهام(أيّان) الذي يسأل عن الزمان في قوله تعالى: " **أَيَّانَ مُرْسَاهَا**"؛ لأنّه مستحقٌ للصدارة في الجملة، ويعرب اسم استفهام مبنيًا على الفتح في محل رفع خبر مقدم، ومرساها: مبتدأ مؤخّر. وغاية تقديم الخبر هنا الاختصاص؛ لأنَّ المقصود السؤال عن وقت منتهى الدُّنيا وقيام الساعة.

–استعمل الخطاب القرآني الاستعارة المكنيّة الحجاجية في قوله تعالى: "**ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**"؛ حيث استعمل الفعل (ثَقُلَ) في غير ما وضع له في أصله اللغوي لعلاقة المشابهة، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي الذي يُقصد به الثِّقَلُ الماديُّ لا المعنويّ. وقد عرّف بعض الباحثين المعاصرين الاستعارة الحجاجية بأنّها: " إبدالٌ قد يحصل به اختصار وإيجاز؛ وذلك بوضع المستعار مكان المستعار له. والأصل في الإبدال الاستعاري أنَّه قياسٌ؛ لأنَّ الاستعارة من حيث التركيب المنطقي نوعٌ من القياس إلّا أنَّه مُختزلٌ، وبعبارة أدقَّ: قياس إضماري؛ أي قياسٌ حُذِفَتْ مُقدّمتاه، واكْتُفِيَ بالنّتيجة"[1].

فالفعل (ثَقُلَتْ) في الآية الكريمة استُخدِم استخدامًا استعاريًا حجاجيًا لتدعيم القضية الأساسية المرتبطة بقصر علم الساعة على الله تعالى، فالثِّقَلُ هنا خاص بثقل المعرفة لا ثقل الحِمل المادي؛ أي أنَّ علم توقيت يوم القيامة قد خَفِيَ خفاءً شديدًا على مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض وكبُر عليهم، فلا يحيط بعلمه أيّ مخلوق.

ومن هذا المنطلق، يمكن النّظر إلى الاستعارة بأنواعها المختلفة على أنَّها أبرز العوامل الحجاجية التي تلعب دورًا رئيسًا في بناء العمل الفنيّ شعرًا ونثرًا؛ فضلًا عن أنَّ تأثيرها الشعوري في المتلقّي يهدف إلى إقناعه وإمتاعه في آنٍ معًا.

[1] -المصطفى، شوقي: المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة، ط1: دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 2005م، ص23.

-اختتمت الآية الكريمة بإيجاز النتيجة النهائية للمسألة باستخدام حرف النَّسخ والاستدراك (لكنَّ)، وحرف النفي (لا) في قوله تعالى: " **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**"، فالاستدراك بـ(لكنَّ) يعني أنَّا تثبت لما بعدها حكماً مخالفاً لحكم ما قبلها، والنَّفي بـ(لا) قبل الفعل (يعلمون) يؤكِّد الجهل التام بتوقيت قيام الساعة على أهل السموات والأرض.

-وتتجلَّى العوامل الحجاجية في الخطاب القرآني بالفعل (سَأَلَ) كذلك في قوله تعالى:

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا** ﴾-(طه/105-107).

-حيث استخدم الجناس التّام بين الفعل (نَسَفَ)، ومصدره (نَسْفًا) ليؤكِّد أنَّ كُلَّ ما على الأرض زائلٌ يوم تقوم السّاعة مهما بلغت عظمته أو ارتفعت هيئته في عيون البَشَر مثل الجبال فهي على شموخها وعلوّها وثباتها ستُقتلع من الأرض، وتُدكُّ حتى تصير رمالًا مستوية مثل رمال الأودية والسهول الملساء، ولن ترى فيها بروزًا ولا نتوءًا ولا تضاريس غير مستوية كما هي عليه الآن. ومن البدهيّ أنَّ نسْف الجبال وزوالها، على عظمتها، يؤكِّد بالحُجّة العقلية زوال كلّ عظيم من البشر والشّجر. واستخدام المفعول المطلق (نسْفًا) يؤكِّد الفعل ويزيل أيّ ريبة لدى السائلين المنكرين قيام الساعة وزوال الجبال.

-ثم جاءت العوامل الحجاجية الأخرى في الآيتين التاليتين لتثبّت هذه النهاية للجبال؛ فاستعمل الخطاب القرآني التمييز المنصوب (قاعًا) ليفسِّر الفعل المضارع (يذر)، ثم استعمل وَصَفَ (قاعًا) بـ (صفصفًا) أي صفًّا واحدًا مستويًا لا بناء فيه ولا نبات مما يؤكّد اختفاءها من دون أثَر. وفي الآية الثالثة وصل الحجاج البلاغي إلى ذروته باستعمال الخطاب للنفي مرتين بالحرف (لا) قبل (العِوج)، و(الأَمْت)، ليرسّخ معنى الاستواء التّامّ بالأرض وعدم وجود أيّ نشوز أو نتوء أو تضاريس قد تبقى من تلك الجبال الهائلة؛ وبالتّالي يكون الخطاب القرآني قد وصل إلى مبتغاه بإقناع هؤلاء السائلين الذين لا يكادون يعتقدون في فناء الجبال الراسيات.

-كما اعتمد الخطاب القرآني في هذه الآيات على الإطناب بالتكميل[1]، وهو أحد ألوان البديع التي تؤدي وظائف عديدة منها الوصول إلى أقصى الغاية في الوصف، وتأكيد المعنى بإشباع وزيادة من غير تطويل مملّ ولا حشو مُخلّ، فالمعنى المراد في الآية الأولى: " يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا" هو تدمير الجبال واقتلاعها من جذورها وتسويتها بسطح الأرض، ثم عُطفت عليها الآية الثانية بالفاء: "**فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا**" لتشبع معنى نسف الجبال وتصييرها سهولًا ملساء منخفضة لا نبات فيها ولا بروز. ثم جاءت الآية الثالثة: " **لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا**" لتطنب في هذا المعنى وتزيده توكيدًا ورسوخًا في ذهن السائل حتى لا

[1] - عرّفه أبو بكر الباقلاني (403هـ) بقوله: "ومن البديع التكميل والتتميم؛ وهو أن يأتي بالمعنى الذي بدأ به بجميع المعاني المصححة المتممة لصحته المكملة لجودته من غير أن يخلّ ببعضها ولا أن يغادر شيئا منها". وعرّفه الخطيب التبريزي(ت502هـ) بقوله: " التبريزي: " والتكميل أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها شيئا إلا أتى به". وعرّفه ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ): " وهو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون الشعر وأغراضه ثم يرى مدحه والاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل فيكمله بمعنى آخر".
ينظر: الباقلاني، أبو بكر: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ط8: دار المعارف بمصر، 2017م، ص143. وينظر: القزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط1: دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م، ص499. وينظر أيضًا: المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، ط1: دار نهضة مصر، القاهرة،1995م، ص143. على التوالي.

يبقى عنده أيّ نوع من الريبة في وقوع ذلك وتحققه؛ وبهذا يتحوّل الخطاب من مستوى الإبلاغية إلى مستوى الحجاجية، حيث لن يبقى لهذه الجبال الشامخة أي أثر من التضاريس أو الاعوجاج أو البروز عن سطح الأرض، ولن يبقى لها أثر لكونها صارت هباءً منثورًا.

المبحثُ الثّالث
السلالم الحجاجية للفعل "سَأَلَ" في القرآن الكريم

عرفنا في المبحثين السابقين من هذه الدراسة ارتبط الخطاب الحجاجي بالأفعال اللغوية والتداولية؛ لكونه استجابة قصدية لظروف القول والتلقّي بين طرفي الحجاج، كما عرفنا كذلك أنَّ الخطاب الحجاجي بالفعل "سَأَلَ" في القرآن الكريم قد وظّف ألوان الأفعال التعبيرية كافّة–خبرية أو إنشائية–لتحقيق الغاية المنشودة في الإقناع والبرهان على صحّة القضايا التي عالجها السياق.

وتأتي السلالم الحجاجية مكمّلة لتقنيات الحجاج البلاغي وطرائقه في الإجابة عن أسئلة المتلقّي وإقناعه بطرق شتى؛ لكونها استراتيجية حجاجية متدرّجة تقوم على سلسلة من الحُجج التي تنتظم في السياق بشكل تصاعدي مقصود حتى تصل إلى الذُّروة التي تمثل منتهى الإقناع أو الخضوع والتسليم لدى الخَصْم. وقد عدّ "بيرلمان" ذلك غاية الحجاج؛ بوصفه " دراسة لتقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص–المخاطبين–للفروض التي تقدَّم لهم، أو تعزز التأييد على تنوّع كثافته"[1].

وبالتالي، فإنَّ تقنية السلالم الحجاجية تقوم على مبدأ التلازم بين النتائج الحتمية –الصريحة أو الضّمنيّة–والمقدّمات التي تؤدي إليها، وقد "لاحظ (ديكرو)–صاحب نظرية السلالم الحجاجية–أنَّ كثيرًا من الأفعال اللغوية ذات وظيفة حجاجية توجّه المتلقّي نحو نتيجة معينة، أو تحوِّل وجهته عنها، وأنَّ لهذه الوظيفة علامات؛ ذلك أنَّ القيمة الحجاجية للمقول لا تنتج فقط المعلومات التي يحملها، وإنّما يمكن للجملة أن تستخدم عبارات أو صيغًا أسلوبية لإسناد الوجهة الحجاجية للمقول؛ أي أنّ المقول يحمل في ذاته تعبيرًا عن السّمة الحجاجية ، وهي سِمة تتنوع بتنوّع المتكلمين، وتبعًا لأوضاع الخطاب"[2].

ومثال ذلك أن نقول:

–نحن في فصل الشتاء/مقدّمة كُبرى

–تلبّدت السّماء بالغيوم/مقدّمة صُغرى

[1] -بنو هاشم، الحسين: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ط1: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبمان، 2014م، ص18.
[2] -طروس، محمد: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط1: دار الثقافة، المغرب، 2005م، ص94.

-أمطرت السماء/نتيجة

فالملحوظ أنَّ الجملة الثالثة عبارة عن نتيجة حتمية صريحة(ن) جاءت في قمّة السُّلّم الحجاجي للخطاب، للمقدمتين الصغرى والكبرى (ق1، وق2) في الجملتين الأولى والثانية اللتين تعدّان درجتين متدرّجتين من درجات هذا السُّلّم.

كما يمكن أن تكون النتيجة ضمنيّة تُفهم من السّياق، وتُستفاد من المقدّمات التي تمثّل قرائن عللًا لتلك النتيجة، مثل قولنا:

-هذا مَوسِمُ الفيضانِ/مقدّمة كُبرى

-هناك شُروخٌ عديدةٌ في السَّدِّ/مقدّمة صُغرى

فهاتان المقدّمتان ستقودان، حتمًا، إلى نتيجة واحدة-ضمنيّة-هي انهيارُ السّدّ.

ومثال ذلك في الخطاب القرآني بالفعل "سَأَلَ" قوله تعالى:

﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾- (النّساء/153).

فإنَّ الخطاب الحجاجي في الآية الكريمة اعتمد على درجات ومراحل متعاقبة من السلالم الحجاجية، كما يأتي:

-" **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ**"/مقدّمة كُبرى

فقد طلب اليهود من الرسول-صلّى الله عليه وسلّم-أن يأتي لهم بالقرآن الكريم كاملًا في هيئة ألواح كألواح التوراة التي أتى بها موسى-عليه السلام-من قبل؛ وذلك شرط ليؤمنوا به.

-" **فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً**"/مقدّمة صُغرى

أيّ أنّهم طلبوا من موسى-عليه السلام-أكبر مما طلبوا منك؛ حيث قالوا: أرنا الله معاينين مجاهرين.

-" **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**"/نتيجة

فأفعالهم السابقة أدّت إلى أن تصيبهم الصاعقة الهائلة فأغشي عليهم وكادوا يهلكون بسبب ظلمهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر.

كما نلحظ في الآية الكريمة صورة أخرى من السلالم الحجاجية ذات نتيجة مغايرة، تتكون من:

-" **اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**"/ مقدّمة كُبرى

-" **فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ**"/نتيجة (1)

-"**وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا**"/نتيجة (2)

حيث يوجد محذوف هنا بين المقدّمة الكبرى والنتيجة الأولى، وهو: (فتابوا أو فاستغفروا الله)، فحينما عَبَدَ هؤلاء اليهود العجلَ من دون الله، وكفروا بوحدانيته سبحانه وبأنبيائه من بعد من رأوا المعجزات والصاعقة،كان بدهيًا أن يهلكهم الله بكفرهم، لكنه عفا عنهم بعدما تابوا وقبل توبتهم بعد أن تخلّصوا من اللّجاجِ والعِنادِ وعادوا إلى طَرِيقِ الحَقّ وآمنوا بألواح التوراة.

ثم جاءت النتيجة الأخرى لتؤكّد تمام البرهان، وتحقيق السلالم الحجاجية غايتها نحو توبة هؤلاء المعاندين وعفو الله عنهم، ثم نصر نبيه موسى-عليه السلام-بالسلطان الظاهر؛ أي الحُجّة الدامغة.

-وتظهر السلالم الحجاجية في الخطاب القرآني بالفعل (سَأَلَ) كذلك في قوله تعالى:

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾-(البقرة/217).

قيل: "إنَّ هذه الآية نزلت عندما أرسل النبيُّ-صلى الله عليه وسلم أول سراياه وعليها عبد الله بن جحش فقاتلوا المشركين، وقتلوا ابن الحضرمي آخر يوم من جمادى الآخرة، والتبس عليهم برَجَبَ، فعيّرهم الكفارُ باستحلال القتال في الأشهر الحُرُم: ذي القعدة، وذي الحِجّة، والمحرّم، ورَجَب"[1]. فجاء الخطاب القرآني ليبيّن ذلك ويكشف أنّ تحريم القتال في الأشهر الحرم مقيّد مطلقًا بأن يكون قتالَ ابتداءٍ لا دفاعًا عن النّفس.

وقد اعتمد الخطاب البلاغي في هذه الآية على السلالم الحجاجية الآتية:

-" **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**"/مقدّمة كُبرى

فالسؤال هنا عن حُكم القتال في الأشهر الحُرُم بيت التحريم والحِلّ. ونلحظ أنَّ (قتال) بدل اشتمال مجرور من الشّهر الحرام.

-" **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**"/ مقدّمة صُغرى(1)

ونلحظ أن هناك محذوفين في الآية، أولهما المبتدأ الذي خبره (قتالٌ)؛ أي: هو قتالٌ. والمحذوف الآخر يتمثّل في خبر الجملة الاسمية الواصفة لقتال: (فيه ذنبٌ)؛ أي: قتالٌ فيه ذنبٌ كبيرٌ.

[1] -السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تفسير السعدي-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان-تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط2: مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1422هـ:2002م، ص98.

-" **وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**"/ مقدّمة صُغرى(2)

ونلحظ أنَّ (المسجد الحرام) معطوف مجرور على (سبيل الله)؛ أي: صدٌّ عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرامِ.

-" **وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ**"/ مقدّمة صُغرى(3)

-" **وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**"/نتيجة

فقد اعتمد الخطاب الحجاجي على مقدمة كبرى، وثلاث مقدمات صغرى، أدّت جميعها إلى نتيجة واحدة مفادها أنَّ الشِّرْكَ بالله بفتنة المؤمنين عن إيمانهم وصرفهم عن الحقّ، أشدُّ خطورة وأكبرُ عند الله من القَتال في الأشهر الحُرُم.

وقد عرّف أحد الباحثين المعاصرين السُّلّم الحجاجي بأنّه: "مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزوَّدة بعلاقة تراتبية تعتمد على ثلاثة قوانين هي: قانون الخفض، وقانون تبديل السُّلّم، وقانون القلْب"[1]؛ مما يؤكِّد أنَّ نتائج السلالم الحجاجية يمكن أن تكون بدحض حُجج الخَصم أو إخضاعه لعقيدة المتكلّم وأيديولوجيته، أو تغيير اتجاهه نحو العكس.

الخاتمـة

تناول هذا البحث موضوع الحجاج البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" في القرآن الكريم؛ لكونه نوعًا من الاستفهام الصريح الذي تناول العديد من القضايا الدنيوية والأُخروية التي شغلت الساحة الفكرية والدينية منذ عصر الرسول-صلّى الله عليه وسلّم- حتى زماننا هذا، ولا سيّما مسائل البعث، والروح، والحلال والحرام، وقيام الساعة، والصدقات والعلاقات الأسرية والاجتماعية وغيرها.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج، أهمها:

[1] -العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج-مرجع سابق، ص20.

أولًا: أن الحجاج البلاغي باستخدام الفعل "**سَأَلَ**" ورد بصيغ ثلاث في القرآن الكريم، هي: الفعل المضارع (يسألون[1]– يسألك[2]–تسألون[3]–يتساءلون[4])، وهي الأكثر شيوعًا، والفعل الماضي المبني للمجهول (سُئِلَ)[5]، ثم اسم الفاعل (سائل)[6].

ثانيًا: أن أساليب الحجاج البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" تنوَّعت في القرآن الكريم؛ مثل: التلقين، والتقرير، والأسلوب الحكيم، والانتقال، والقول بالموجَب.

ثالثًا: أنَّ الخطاب الحجاجي البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" في القرآن الكريم اعتمد على ثلاث تقنيّات أو طرائق، هي: الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، والسلالم الحجاجية.

رابعًا: أن الحجاج البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" في القرآن الكريم تناول قضايا ومسائل عديدة؛ مثل: التوحيد، والخلق، والبعث والنشور، والحساب، والفرائض والعبادات، والعادات، والظواهر الكونية، وكثيرًا من الغيبيات وغيرها.

خامسًا: أن الحجاج البلاغي بالفعل "**سَأَلَ**" في القرآن الكريم عايش الظروف والأحوال التي مرّت بها الإسلام، وعلَّل كثيرًا من أسباب نزول آيات القرآن.

فهرس الآيات القرآنية

م	الآية	السورة	الرقم
1	﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾	البقرة	189
2	﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾	البقرة	217
3	﴿ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾	البقرة	219
4	﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾	البقرة	220
5	﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾	البقرة	222

[1] -كما في المواضع الآتية: البقرة: 189/215/217/219/220/222، والإسراء/85، والكهف/83.
[2] -كما في المواضع الآتية: النساء/153، والأحزاب/63، ويس/21.
[3] -كما في المواضع الآتية: البقرة/134/141، والأنبياء/13، وسبأ/25، والأحزاب/44.
[4] -كما في المواضع الآتية: الكهف/19، والمؤمنون/101، والقصص/66، والصّافّات/50/27، والنّبأ/1.
[5] -كما في المواضع الآتية: البقرة/108، والأحزاب/14، والتكوير/8.
[6] -كما في المواضع الآتية: البقرة/177، ويوسف/7، وفُصِّلت/10، والمعارج/1.

6	﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾	الإسراء	85
7	﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾	الأعراف	187
8	﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَّ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا ﴾	طه	105
9	﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾	النساء	153

المصادر والمراجع

1-القرآن الكريم، بقراءة حفص عن عاصم.

2-الباقلاني، أبو بكر: **إعجاز القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، ط8: دار المعارف بمصر، 2017م.

3-بطاهر، بن عيسى: **البيان القرآني، خصائصه وأساليبه**، ط1: جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2018م.

4-بن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، ط1: الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

5-بنو هاشم، الحسين: **نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان**، ط1: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبمان، 2014م.

6-الراضي، رشيد: **الحجاجيات اللسانية عند ديكرو وأنسكومبر**، مجلة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، سبتمبر، 2005م، ص234.

7-الرقبي، رضوان، **الاستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله**، مجلّة عالم الفكر، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع20، م40، أكتوبر-ديسمبر 2011، ص93.

8-السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: **تفسير السعدي**-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان-تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط2: مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1422هـ:2002م.

9-طروس، محمد: **النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية**، ط1: دار الثقافة، المغرب، 2005م.

10-العزاوي، أبو بكر: **اللغة والحجاج**، ط1: منتديات سور الأزبكية، مصر، 1426هـ/2006م.

11-العمري، محمد: **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، ط1: أفريقيا الشرق، المغرب، 2005م.

12-الغزّي، محمد صدقي بن أحمد: **الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية**، ط4: مؤسسة الرسالة العالمية، بيروت، لبنان، 1416هـ/1996م.

13-القزويني، الخطيب: **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط1: دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م.

14-المصري، ابن أبي الإصبع: **بديع القرآن**، تحقيق حفني محمد شرف، ط1: دار نهضة مصر، القاهرة،1995م.

15-المصطفى، شوقي: **المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة**، ط1: دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 2005م.

16-مطلوب: **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، ط1: مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ، العراق، 1403هـ/1983م.